عدد **14** ديسمبر(2000)، 125-138

جدلية النقض والإثبات في المقدمة الطللية عند أبي نواس

ملخص

يسعى هذا البحث إلى الوقوف، ما أمكن، على أهم الدوافع التي غدا أبو نواس في ضوئها مجددا في الشعر، وهي دوافع متصلة بشخصيته وحياته ونسبه كما جاءت به مصادر الأدب، مع الإشارة إلى الاضطراب والتحريف اللذين خالطا سيرة أبي نواس في بعض المؤلفات التي جاء بها المستشرقون، ومن نقل عنهم من المؤلفين المحدثين. ثم يتقدم خطوة أوسع في أبعاد قضية التجديد في شعر أبي نواس في الخمرة والهجاء والمدح، ذلك أن أبا نواس نبذ الطلل في أهاجيه وخمرياته وأقامه في مدائحه، ومن أجل ذلك تحدثنا عن جانبي النقض والإثبات في المقدمة الطللية عنده.

د. أحمد علي محمد
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة البعث، حمص (سوريا)

لا شك أنّ ما أثاره أبو نواس حول نبذ الطلل في فواتح بعض شعره، كان من الأسباب التي دعت النقاد إلى اعتباره مجددا، ذلك أنه ثار على الطلل، وجاهر بشتمه، وهون من شأنه، ودعا إلى استبداله بما هو موصول بظواهر حضارية جديدة، آلت إليها حياة العرب في زمن أبي نواس، تمثلت بوصف مجالس اللهو والشراب.

غير أنّ هذا التصور لا يسلم من شك في كثير من الأحيان، وليس ذلك فحسب، بل إنّ أمرين ينفيان ثبوته في الذهن: أحدهما أن أبا نواس مسبوق إلى نبذ الطلل والمجاهرة بوصف الخمرة، إذ سبقه إلى التصريح بالخمرة الوليد بن يزيد كما يورد صاحب الأغاني "للوليد في ذكر الخمرة وصفتها أشعار كثيرة، قد أخذها الشعراء فأدخلوها في أشعارهم سلخوا معانيها، وابو نواس خاصة فإنه سلخ معانيه كلها وجعلها في شعره فكررها في عدة مواضع (1)، " وسبقه إلى نبذ الطلل الكميت الأسدي وأشجع السلمي، وديك الجن الحمصي على نحو ما يشير د. عطوان (2).

والآخر: أن دعوة أبي نواس إلى محاربة الطلل

Résumé

Cet article se propose d'étudier les motivations qui ont poussé ABOU NOUAS a devenir un rénovateur en poésie. Selon les sources littéraires, ces motivations se rapportent à la vie du poète, à sa personnalité et à sa famille (provenance).

Ses motivations en poésie touchent les domaines des plaisirs de la beuverie, les critiques et les éloges Ainsi, le poète rejette les ruines dans ses critiques et sa poésie sur le plaisir de la beuverie et il les intègre dans ses éloges.

Dans ce contexte, l'auteur explique le recours à cette contradiction, "rejet et acceptation" des ruines dans l'introduction de sa poésie.

© جامعة منتوري، قسنطينة، الجزائر2000

لم تكن شاملة أغراض شعره كافة، وإنما أذاعها في بعض شعره كالخمرة، وكتمها في بعضه الآخر كالمديح، لهذا جاءت دعوته إلى ترك الطلل محكومة بمناسبات القول ولم تكن سنة جرى عليها في عموم شعره.

من هنا رأينا الوقوف على حقيقة دعوته تلك وتفسيرها من جهة تحديد دوافعها وأبعادها.

1- الدافع إلى نبذ الطلل

إذا ما حاول امرؤ البحث عن خطوط جادة في شخصية إبي نواس تعزز في النفس الاعتقاد بأنه كان حريصا على تجديد الشعر، الذي آلت بعض أشكاله إلى شيء من التصلب والجمود، على حد تعبير بعض الدارسين، أعياه البحث، ذلك أن صورة أبي نواس في مصدرنا الأدبية تلوح من وراء وشاح هزلي يوضح إلى حد بعيد طبيعته الساخرة التي آثرت الحياة مجونا وتهتكا واستهتارا، ومثل هذه الشخصية قليلة الانضباط، كثيرة التجاوز.

ويبدو أن الجانب الرسمي في شخصيته امتزج بالجانب الخاص، فبات من الصعب الفصل بينهما وكان من نتيجة ذلك الامتزاج أن عبث النواسي وسخر وتهتك في المواقف الجادة، فمن هذا القبيل روى أنه لما مدح الخصيب بمصر أخذ عليه أن جمش غلاما (3). ومنه أن الرشيد أراد امتحانه فقال له: "اهجنا فأنشد".

أضاع الإمامة فسق الإمام وغش الوزير وجهل المشير

فلم يتوقع الرشيد منه هذا المجون فطرده من مجلسه (4). وذكر أبو هفان أنّ الأمين كان قد طلب أبا نواس لمجلسه فقال أحد جلسائه: "يا أمير المؤمنين هذا عيار شارب شواظ، ينادم السفلة والسوقة، وينتاب الحانات، ويركب الفواحش، ويرى في ذلك غنما، وإن في منادمته تشنعة على أمير المؤمنين" (5). وعرف عن أبي نواس أنه كثير التطاول على القيم الدينية، وقد ذكر له ابن قتيبة شعرا يدل على فساد عقيدته (6)، وروي عن الرشيد أنه لما سمع قوله في الخصيب:

فإن يك باقي سحر فرعون فيكم فإنّ عصا موسى بكف خصيب

فقال له: يا بن اللخناء أنت المستخف بعصا موسى نبي الله، فقال لإبراهيم بن نهيك: لا يأوي إلى عسكري من ليلته (7)، وهذه من الأمثلة الدالة على كثرة تجاوزه.

وتجاوزه لم يكن يصدر في حال من الأحوال عن جهل، وإنما عن معرفة ودراية، إذ انتهى إليه علم غزير في الدين والسير والأخبار واللغة والشعر والكلام (8)، لكنه كرّس هذه المعارف للعبث والتطاول والتجاوز. وقد وصف عبثه في قوله (9):

إني أنا الرجل الحكيم بطبعه ويزيد في علمي حكاية من حكى
أتتبع الظرفاء أكتب عنهم كيما أحدث من أحب فيضحكا

وهذا الشاهد مما يبين مقدار العبث الذي انطوت عليه شخصيته، ومعروف أن مثل هذه الشخصية المولعة بالسخرية، يستهويها النقض أكثر من البناء، وأما استعدادها للنقض

فهو راجع لأمور شتى منها:

1 - لعل انصراف أبي نواس إلى المجون في شعره وحياته كان بمثابة هروب من القيود التي تفرض عليه الالتزام بالمبادئ والخلق، وهذا ما لا تطيقه طبيعته اللاهية، من هنا آثر العيش عابثا لا يعنيه تمثل القيم لا في الفن ولا في الحياة؛ لأن التمثل يحوج إلى جدّ يتيح له متابعة خط التطور في مسيرة الشعر، ومن ثمّ تجديده بما يوافق منطق التجديد الذي يفرض عليه إضافة كل ما هو إيجابي، وإذا كان لابدّ من النقض هنا فإنه نقض يوجب البناء من جديد على أسس سليمة، وفق مقتضيات الفن نفسه، وإلا ما قيمة أن ينقض المرء قيمة وكفى؟!

إن دوافع أبي نواس إلى نقض الطلل في الشعر، مع أنها نابعة من طبيعته الساخرة في كثير من الأحيان، إلا أنها لم تكن نزيهة عن الغايات، فقد تأثر بمجموعة الأفكار التي أشاعتها الشعوبية، إذ الشعوبية في رأي بعض الباحثين (10) كانت وراء ظواهر المجون التي انتشرت في بداية العصر العباسي، وكانت تهدف من ورائها إلى خلخلة بنيان المجتمع العربي وإضعافه بعد ما عجزت عن تحقيق نصر العرب بالقوة، وقد تحولت جهة التصارع بين العرب والشعوبية بعد مقتل أبي مسلم الخرساني على يد المنصور إلى ما هو شبيه بالتنافس الحضاري القائم على المقارنة بين حياة العرب المتصلة بالبادية، وحياة الأعاجم ذات الطابع الحضاري الثري، وهذا بالطبع من وجهة نظر شعوبية.

لقد كان أغلب شعراء المجون، على نحو ما يلاحظ الدكتور هدارة، من الموالي أمثال: حماد عجرد وهو مولى لبني سواءة بن عامر بن صعصعة، وسلم الخاسر مولى بني تيم بن مرة، وبشار الأعمى مولى العقيليين، وأبي نواس مولى آل الحكم. وهؤلاء جميعا عرفوا بالاستهتار والعبث، وسعوا إلى إشاعة المجون بطريق التصريح بمقارفة الذنوب، وارتكاب المحرمات دونما تستر، وهذا إنما كان جزءا من سياسة الشعوبية لهدم القيم، وهؤلاء الشعراء عملوا بسياستها إذ ليس من الضروري لمن أراد أن يستبيح حرمة أن يجهر بها إلا إذا أراد نشر الفساد (11).

2 - زعم بعض الباحثين من المستشرقين، ومن نقل عنهم أو حذا حذوهم في النظر إلى قضايا تراث العرب من الدارسين المحدثين، أن أبا نواس عربي من جهة أبيه، وهذا إنما يخالف ما أطبقت على ذكره مصادر الأدب الموثوقة من أنه فارسي بلا خلاف.

ولا ريب أن الإصرار على عروبة النواسي، وهو أمر صدر عن نفر من المستشرقين في البدء يتصل بغاية تتركز حول الاعتبارين الآتين:

أ - إذا كان النواسي عربيا فإن دوافع التمرد في شعره خصوصا الثورة على الطلل، كذلك التجاوز في حياته لا تتصل بدوافع غريبة، أو بمؤثرات أجنبية كالشعوبية مثلا، لذا تسقط عنه شبهة الشعوبية فتمسي ثورته على الطلل ضربا من التجديد الذي دعا إليه تطور الحياة، تلك الحياة التي لم تستطع التقدم إلا بنبذ تراثها وإنكار تاريخها، والإقبال على حياة الأعاجم.

ب - إن القول بعروبة أبي نواس، من وجهة نظر هؤلاء الدارسين، يستوجب النظر إلى الأسس التي قامت عليها دعوته، والمتمثلة أصلا بالخروج على القديم، ونبذ

الأساليب الموروثة التي عبر فيها السابقون عما اختلج في دواخلهم، إلا أنها أضحت فجأة في هذا العهد، عهد أبي نواس أعني عاجزة عن استيعاب المعاني الجديدة والظواهر الحديثة في الحياة. ومؤدي النظر إلى أسس التجديد في نهضة أبي نواس الشعرية أنه لا سبيل لتخطي مشكلات التخلف في حياة العرب المعاصرين وفكرهم إلا بصنيع مماثل، أقصد لا يتم تجديد الشعر والفكر، إلا بالإقبال على حياة الغرب. ومثل هذا التصور هو ما دفع بعض الدارسين إلى اعتبار النواسي من العرب؛ لأن ذلك يسقط عنه تعصبه للشعوبية، ويكون بموجب ذلك قد ثار على العرب، وهو رجل منهم لترسيخ الغاية التي ذكرناها آنفا.

وإذا أردنا التمثيل لما نقول نجد رينولد نيكلسون (1868 - 1945) من أولئك المستشرقين الذين أقروا بعروبة أبي نواس في قوله: "إنه شاعر عربي يماني" (12)، وجهة الخطورة فيما قرره نيكلسون تكمن في نتاج بعض الباحثين الذين نقلوا عنه هذه المقولة بلا تحقيق أو عود إلى مصادرنا الأدبية.

وكأن نيكلسون اعتمد في مقولته الآنفة على نسخة من أخبار أبي نواس لعبت فيها يد النساخ ودخلها تحريف كثير، وفيها سقط أيضا (13). وقد طبعت هذه النسخة طبعة تجارية بلا تحقيق فجاءت تحت اسم (أبو نواس في تاريخه وشعره ومباذله وعبثه ومجونه). وقد صدرت عن دار الجيل بيروت سنة 1975م، وهذه الطبعة رديئة لا تصلح أن تكون مرجعا علميا وقد ورد فيها اسم أبي نواس على النحو الآتي:" هو الحسن بن هانئ بن عبد الأول بن عبد الصباح بن الجراح بن عبد الله بن حماد بن أفلح بن زيد بن هنب بن ددة بن غنم بن سليمان بن حكم بن سعد العشيرة بن مالك (14)".

وبالمقارنة مع اسم أبي نواس الوارد في الطبعة العلمية من أخباره لابن منظور وجدنا تحريفا واختلافا حيث أورد ابن منظور الاسم كما يلي:" هو الحسن بن هانئ بن عبد الأول بن الصباح مولى الجراح بن عبد الله بن جعادة بن أفلح بن الحارث بن دوّ بن حذفة بن مظة بن سلهم بن سعد العشيرة بن مالك" (15).

ومن الواضح أن التحريف الذي حدث في الخبر الأول تناول كلمة (ابن) التي جعلت من أبي نواس ولدا ينحدر في تسلسل نسبه من الجراح بن سعد العشيرة، وفي الثاني أثبت ابن منظور أن ذلك كان بالولاء فذكر أنه مولى الجراح وليس ابنه. وما يؤيد ذلك قول ابن قتيبة عنه: "هو الحسن بن هانئ مولى الحكم بن سعد العشيرة"(16)، وما ذكره ابن المعتز في طبقاته" حدثني علي بن حرب أخو محمد بن حرب بن خالد المنهزم قال: حدثني أخي محمد بن حرب، وكان بين الأخوين قريب من خمسين سنة أن ابا نواس واسمه الحسن بن هانئ ويكنى ابا علي، ولد بالأهواز بالقرب من الجبل المقطوع المعروف براهبان سنة تسع وثلاثين ومائة ومات ببغداد سنة خمس وتسعين ومائة وكان عمره خمسا وخمسين سنة، ودفن في مقابر الشونيز في تل اليهود، ومات في بيت حمارة كان يألفها، وكانت أمه أهوازية يقال لها جلبان من بعض مدن الأهواز يقال لها نهر تيري، وأبوه من جند مروان بن محمد من أهل دمشق مولى لآل الحكم بن الجراح من بني سعد العشيرة" (17).

فمسألة نسب النواسي عند كل من ابن قتيبة وابن المعتز وابن منظور واضحة لا لبس فيها، إذ هو فارسي بلا خلاف ومولى لآل الحكم بن الجراح، غير أنها بعدئذ دخلها شيء من الغموض عند ابن جني المتوفى سنة (393 هـ) حين تعرض لذكر نسب أبي نواس في معرض شرحه أرجوزته فقال: "الحسن بن هانئ من حكم بن سعد العشيرة" (18). وعبارته (من حكم) يكتنفها الغموض، فهي لا توضح ما إذا كان عربيا أم من الفرس، ونسبه إلى الحكم لا يتضح ما إذا كان بطريق الولاء أم بالنسب الأصيل.

وفي العصر الحديث حدث اضطراب في نسب الرجل من جهة اتصاله بآل الحكم بن الجراح، فزعم بروكلمان (1886 - 1956م) أنه عربي من جهة أبيه، وربما أيد زعمه باستقراء خاطئ لبعض الأخبار فقال: "وكان أبوه عربيا من جند مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية، وأمه فارسية من غواسل الصوف تدعى جلبان" (19).

ولعل بروكلمان نظر فيما أورده ابن المعتز" وأبوه من جند مروان بن محمد من أهل دمشق مولى لآل الحكم بن الجراح" (20). فتوهم أنه عربي لكون والده من جند مروان بن محمد، أو أنه من سكان دمشق، وقد تكون إضافته كلمة (عربي) إلى الخبر مقصودة لا سيما أن ابن المعتز ذكر صراحة في الخبر نفسه أنه مولى. لذا يعدّ ذلك من باب تزوير الأخبار الذي تعاظمت خطورته ليس في أبحاث المستشرقين فحسب، وإنما عند بعض الدارسين العرب الذين نقلوا عنهم.

وقد تدخل إشارات جرجي زيدان إلى نسب أبي نواس في قوله: "كان أبوه دمشقيا من جند مروان ابن محمد آخر ملوك بني أمية" (21) في هذا الباب الذي ولج منه المستشرقون إلى درس سيرة أبي نواس فقوله "كان أبوه دمشقيا". يصرف الذهن إلى أنه من أهل دمشق من العرب الذين جعلهم مروان بن محمد جندا له وهذا غير صحيح بدليل تعليق ابن منظور على بعض شعر أبي نواس في هذا الموضوع:

فإن أك بصريا فإنّ مهاجري دمشق ولكنّ الحديث فنون

فقال ابن منظور: إنما نشأ بالبصرة وليس له بدمشق قبل ولا بعد (22).

ويميل عمر فروخ إلى اعتبار أبي نواس من العرب، حيث يقول: " ولد بالأهواز سنة 140 هـ، وهو مولد عربي من جهة الأب وفارسي من جهة الأم (23). وينحو أحمد حسن الزيات نحو من زعم أن أبا نواس عربي فيقول: " هو الحسن بن هانئ بن عبد الأول الحكمي، يكنى بأبي نواس" (24).

وأما دائرة المعارف، فقد انصرفت إلى القول بأن النواسي، وإن كان حكميا إلا أن نفسه كانت تميل إلى الفرس، فتورد: "أبو نواس الحسن بن هانئ الحكمي أحد فحول شعراء العرب، ولد بالأهواز عام 130هـ وكانت أمه تغسل الصوف وكان يرى في نفسه أنه أقرب إلى الفارسية منه إلى العربية" (25).

والحق أنه فارسي من حيث أصله ومن حيث ميوله أيضا، ولو أنه ادعى الانتساب إلى العرب، غير أن ذلك عدّ من مثالبه، ومن المأخذ عليه، وقد استغلها خصومه على النحو الذي حدث بينه وبين الرقاشي الذي قال فيه: (26).

نبطيّ فإذا قيل لـه أنت مولى حكم قال أجل
هو مولى الله إن كان به لاحقا فالله أعلى وأجل
واضعا نسبته حيث اشتهى فإذا ما رابه ريب رحل

وقد ذكر ابن منظور أنه دعيّ في نسبه، انتسب إلى نزار ثم انقلب عليها فانتسب إلى اليمن ثم هجاها، وروى أنه ادعى أنه من حاء وحكم وهما قبيلتان من اليمن، فزجره آل يزيد بن منصور الحميري، وقالوا له: أنت خوزي فمالك لحاء وحكم، قال: أنا مولى لهم فتركوه فقال بعضهم لبعض: إنه ظريف اللسان غزير العلم، فدعوه وهذا الولاء يتعصب لنا ويهجو النزارية... (27) فمن شعره في هجاء نزار قوله: (28).

واهج نزارا وأفر جلدتها وهتّك الستّر عن مثالبها

ومن هجائه اليمانية قوله: (29)

لأزد عمان بالمهلب نزوة إذا ذكر الأقوام ثم تلين

ومن طريف ادعاء أبي نواس ما ذكره ابن منظور "أنه ادعى في أول أمره أنه من ولد عبيد الله بن زياد بن ظبيان، فقيل لأبي نواس: "إن الرجل الذي تدعي له لا عقب له لأنه فلج ومات ولا ولد له، فلو أنك قلت ولد النابئ بن زياد أخي عبيد الله قبلنا منك" (30). وإلى جانب كثرة ادعائه إلى العرب، كان يصرح بأصله الفارسي ويكثر التفاخر بملوكهم يقول: (31)

تراث أبي ساسان كسرى ولم يكن مواريث ما أبقيت تميم ولا بكر

وذكرت المصادر أن النواسي كان يخفي نسبه إلى الفرس خوفا من الهجاء، فقال ابن منظور: "إنه يتماجن ويعبث في دعاويه وشعره، إلا أنه كان يخفي نسبه واسم أمه لئلا يهجى" (32).

وقد ظن د. ضيف أن كثرة ادعاء أبي نواس في نسبته إلى العرب، وإشارة بعض المصادر أن أباه كان من جند مروان بن محمد، وأنه يتكنى بكنية يمانية، كان ذلك قد حمل بعض الرواة القدامى والدارسين المحدثين على الظن بأنه عربي، إلا أنّ المتتبع يرى أن المصادر فصّلت في قضية نسبه، وأشارت صراحة إلى أصله الفارسي، والدليل على وضوح هذه القضية هو قول ضيف نفسه حين تحدث عن أصله فقال: (والصحيح أنه مولى فارسي من موالي الجراح بن عبد الله الحكمي) (33).

فمن الواضح بعد كل الذي تقدم أن أبا نواس أعجمي وقد روى ابن منظور على لسان أبي عمرو قعنب قوله: "خرجت مع الأصمعي من المسجد الجامع فلما صرنا على الدرب الذي يخرج من سكة المريد إلى بني أصمع، وقف بي على دار مبنية بالآجر والجص هنالك، فقال: أترى هذه الدار؟ عهدي بها مرة من قصب، وكان فيها طراز حائك، وكان فيها إنسان فارسي تزوج امرأة فولدت غلاما، فأرضعت بلبانه غلاما من ثقيف، فتعلم الصبي من الحائك القرآن، ثم قال الشعر، وخرج إلى بغداد، وبلغني أنه قال:

واهج نزارا وأفر جلدتها وهتك الستر عن مثالبها

وادعى اليمن وتولاهم، فسألته عنه فقال هو أبو نواس " (34).

أما أبوه فكان اسمه فيما يروي ابن منظور (هني)، وعمل " كاتبا لمسعود الماذرائي على ديوان الخراج، ولم يكن له ولاء ولا حلف حتى مات، ولما كبر أبو نواس وأدب قال لنفسه: حسن بن هانئ، وإنما كان حسن بن هنّيّ" (35)، ويروى أن أباه عمل حائكا، وقيل من جند مروان بن محمد (36).

وجده اسمه رباح، وكان مولى الجراح بن عبد الله الحكمي والي خرسان، غير أن اسمه أغفل في سلسلة اسم النواسي، فلم يشر إليه ابن منظور حين ذكر نسبه مفصلا (37).

وأمه كانت فارسية أو سندية، تزوجها هانئ و أولدها عدة أولاد منهم أبو نواس، وأبو معاذ واسمه أحمد، وابنة تزوجها فرج القصار، وهو عبد الباخرزي (38).

وفحوى القول في نسب أبي نواس أنه خوزي من بان شيركان أو من أرض مناذر حسب إشارة ابن منظور في قوله: "والمجتمع عليه أن أصله من الخوز من مناذر الكبرى من رستاق ما يرثى من قرية يقال لها باسكني" (39).

2 - أبعاد ثورة النواسي

أشرنا آنفا أن الدعوة إلى نقض الطلل في فواتح الشعر عند أبي نواس لم تكن شاملة، وإنما ارتبطت بموضوع الخمريات دون المديح، ويحسن بنا قبل تفسير هذه الدعوة أن نحصى المقدمات التي نقض فيها الطلل في بدايات خمرياته وأهاجيه ومدائحه، وهي الموضوعات التي ذكر فيها الطلل إما على جهة الإثبات وإما على جهة النقض.

أ - الخمريات

ترددت أصداء دعوة أبي نواس إلى نبذ الطلل في بدء إحدى وثلاثين قصيدة من خمرياته فكانت على هيئة افتتاح وجيز لم يشغل أكثر من بيتين أو ثلاثة، وقد طرق النواسي في ابتداءاته معاني محددة ارتبطت بثلاث صيغ لغوية حددت قوة الانفعال الذي كان يختلج في نفسه إزاء الطلل، وأهم هذه الصيغ الابتداء بالأمر أو النهي مثل: دع الأطلال (40) دع لباكيها الديار (41) لا تعرج بدارس الأطلال (42) دع الربع (43) اترك الأطلال (44) اعدل عن الطلل (45) لا تبك رسما (46) لا تبك ربعا (47) انس رسم الديار (48) عدّ عن رسم (49)، أعرض عن الربع (50).

وهذه الصيغ فيها من القوة والمباشرة ما يدل على عزمه للتخلص من ذكر الطلل، وينطوي على كره واضح لهذا الرسم الفني.

وهنالك صيغ ماضيه اعتمد عليها في افتتاح بعض خمرايته كقوله: عاج الشقي على دار (51) راح الشقي على الربوع (52). وفي هذه الصيغ معنى الإخبار، وقد سخرها لإثارة السخرية والهزء والإزاء بمن وقف على الطلل. واعتمد على صيغ أفادت التفضيل كقوله (53):

أحسن من وقفة على طلل كأس عقار تجري على ثمل

وقوله (54):

أحسن من وصف دارس الدّمن ومن حمام يبكي على فنن
ومن ديار عفت معالمها ريحانة ركّبت على أذن
في روضة بالنبات يانعة قد حفّها كل نير حسن

وهذه الفواتح فيها معنى المفاضلة بين الطلل والخمرة. وهنالك صيغ أخرى قليلة أشاعها في بدء خمرياته مثل: أيا باكي الأطلال (55) لمن طلل (56) مالي بدار خلت(57). وهذه الفواتح أيضا لم تخل من إنكار للطلل وهجوم على أصحابه وازدراء لأهله. وابو نواس في هذا الشعر إنما دعا إلى نقض الأطلال التي ترمز إلى حياة العرب السابقة بالتحديد، ولم يقصد إلى محاربة كل ما يتصل بالقديم في حياة الأمم الأخرى، فقد حارب قديم العرب، وهو العهد الذي تكونت فيه قوتهم. والدليل على ذلك أن النواسي لما عرض في خمرياته بعض صور الأطلال الخاصة بالأكاسرة من ملوك فارس لم يعرض بها أو يهجم عليها على نحو ما فعل حين تحدث عن الأطلال المتصلة بموروث العرب. يقول: (55)

ودار ندامى عطّلوها وأدلجو بها أثر منهم جديد ودارس
مساحب من جر الزقاق على الثرى وأضغاث ريحان جنيّ ويابس
حبست بها صحبي فجددت عهدهم وأني على أمثال تلك لحابس
ولم أدر من هم غير ما شهدت به بشرقي ساباط الديار البسابس
أقمنا بها يوما ويوما وثالثا ويوما له يوم الترحل خامس
تدار علينا الراح في عسجدية جتها بألوان التصاوير فارس

لقد أطال النواسي الوقوف على هذه الأطلال، فهو يحبس صحبه فيها ويجدد عهدهم ويكثر التشوق والتحنان إلى تلك البسايس التي رآها بشرقي مدينة ساباط الفارسية، وهذا كله يخالف صنيعه عندما يذكر الطلل المتصل بموروث العرب، والسبب هو أنه هنا يقف على آثار حانة من حانات أكاسرة الفرس.

وهذا النص إنما يدل على أن دعوة أبي نواس إلى نبذ الطلل في فواتح خمرياته لم تكن من باب الحرص على وصف الظواهر الجديدة التي نشأت بضوء الحضارة؛ لأن الدعوة هنا إلى وصف الخمرة لا تتصل إلا بإحياء عادات الأكاسرة الفرس في المجون والإباحية، ومن هنا لا نرى في دعوة أبي نواس إلى نبذ الطلل في صدور خمرياته ما يخالف الأفكار التي دعت إليها الشعوبية كالدعوة إلى الإباحية والفساد والإمعان في الملذات بحجة الدعوة إلى الحرية الفردية والفكرية.

ب - الأهاجي

ذكر أبو نواس الطلل في نحو ست قصائد من أهاجيه الطوال نسبيا، وقد اختلف أسلوبه في نقضه عما هو الشأن في خمرياته، على النحو الذي يبينه هذا الجدول:

رقم	مطلع القصيدة	أبرز معاني القصيدة	المهجو	عدد أبيات المقدمة الطللية	عدد أبيات القصيدة
1	ليست بدار عفت وغيرها ضربان من قطرها وحاصبها.	- عدم إطالة الوقوف في الطلل. - هجاء عدنان وقحطان والمفاخرة بالفرس.	العرب: قحطان وعدنان	3 أبيات	38 بيتا
2	ألا حيّ أطلالا بسيحان فالعذب إلى برع فالبئر بئر أبي زغب.	تحية الطلل، وصف حيوان الديار، ذكر النساء المقارنة بين العرب والفرس.	تميم وأسد	5 أبيات	28 بيتا
3	ألم تربع على الطلل الطماس عفاة كل أسدم ذي ارتجاس.	ذكر الطلل، وصف السحاب والرياح والأثافي والنساء، التعريض بخندف.	خندف	7 أبيات	18 بيتا
4	ما منك سلمى ولا أطلالها الدرس ولا نواطق من طير ولا خرس.	إنكار الطلل. اختصار الحديث عنه، هجاء قوم هاشم بن حديج.	هاشم بن حديج	في بيت واحد	8 أبيات
5	دع الرّسم الذي دثرا يقاس الريح والمطرا	الدعوة إلى ترك الطلل، هجاء العرب والمفاخرة بحياة الفرس.	هاشم بن حديج	في بيت واحد	34 بيتا
6	حيّ ربع الغنى وأطلال حسن الحال أقوين من زمان ودهر.	تحدث عن آثار الديار ثم تخلص إلى هجاء الرقاشي.	الرقاشي	6 أبيات	11 بيتا

وهذا الجدول إنما يشير إلى:

1- يترواح طول المقدمة الطللية بين (1 - 7) أبيات فهي طويلة بالمقارنة مع فواتح خمرياته السابقة.

2- لقد حاول أبو نواس كتم دعوته إلى نبذ الطلل في مقدماته الطوال، ففي المقدمات (1 - 3) يردد بعض المعاني المعروفة في وصف الطلل مثل الافتتاح بذكر الطلل ومعاهده، وذكر عمل الرياح والمطر فيه، ثم صور بعض حيواناته، وقد أتى النواسي على بعض هذه المعاني في مقدماته الطوال.

3- لقد صرح بهجومه على الطلل في مقدماته القصار (4 - 5) وهذا إنما هو امتداد لدعواته التي وجدناها في صدور خمرياته من حيث قصر المقدمة وقوة الافتتاح وشدته.

وثمة مؤشر مهم في ذكره الطلل في صدور أهاجيه يتمثل بعدم تعرضه إلى نبذه مباشرة كما هو الشأن في خمرياته، وإنما تبع أسلوبا آخر في نقضه يتمثل بالموقف العام

للقصيدة، وهذه خطوة جديدة تشير إليها في عمل أبي نواس في نقض الأطلال في فواتح أهاجيه، وتفصيلها أن النواسي لم يعمد إلى نقض الطلل بمعزل عن الموقف العام في القصيدة كما فعل في خمرياته، والتي تركز عمله فيها حول الدعوة إلى نقض الطلل، وبالمقابل استبدله بوصف مجالس اللهو والشراب، فالخمرية تقوم إذن على نقض الطلل نقضا صريحا ومن ثم إثبات وصف الخمرة بدلا عنه، في حين قام عمله في أغلب أهاجيه على النقض الشامل للطلل والمهجو، مثال ذلك أنه لما دعا إلى نقض الطلل في قوله:

دع الرّسم الذي دثرا يقاسي الريح والمطرا

نقض في الوقت نفسه مآثر الأعراب وسخر من شعرائهم في القصيدة ذاتها:

إذا ما كنت بالأشياء في الأعراب معتبـرا
فإنك أيّما رجـل وردت فلم تجد صـدرا
ومن عجب لعشقهم الـجفاة الجلف والصّحرا
فقيل مرقش أودى ولم يعجز وقد قـدرا
فحدّث كاذبا عنـه وقال بغير ما شعـرا
ولو كان ابن عجلان من البلوى كما ذكـرا
لكان أذمّ عهدا في الهوى وأخبه عـذرا

وعلى هذا النحو يبدو الموقف في قصيدة الهجاء عنده قائما على النقض، فهو يهجو الخصم بمثل ما يتنكر للطلل لتقوم القصيدة على هذا المعنى المتصل في البدء والعرض.

ج - المدائح

ذكر أبو نواس الطلل في صدور نحو سبع عشرة قصيدة مدحية، وقد جاءت معانيه في الغالب على جهة الإثبات كما أنها استوفت كثيرا من المقومات الفنية التي تنطوي عليها المقدمة الطللية عامة، ويمكن الكشف عن سمات تلك المقدمة من حيث الشكل والمضمون بالنظر إلى الجدول:

رقم	مطلع القصيدة	الممدوح	أهم معاني المقدمة	أبيات المقدمة	أبيات القصيدة
1	لقد طال في رسم الديار بكائي وقد طال ترددي بها وعنائي	الرشيد	ذكر الطلل، إبراز التشوق والحنين وكثرة التردد عليه، الإشارة إلى وصف الخمرة في آخر المقدمة على هيئة تخلص.	3 أبيات	13 بيتا
2	حيّ الديار إذا الزّمان زمان وإذا الشّباك لنا حرى ومعان	الرشيد	تحية الديار، التشوق إلى ربوعها.	3 أبيات	24 بيتا
3	يا دار ما فعلت بك الأيام ضامتك والأيام ليس تضام	الأمين	تحدث عن صروف الزمان وما فعله الدهر	3 أبيات	20 بيتا

			بالديار.		
4	يا كثير النّوح في الدّمن لا عليها بل على السّكن	الأمين	ذكر أن البكاء ليس على الديار وإنما على من كان يسكنها	في بيت واحد	14 بيتا
5	ديار نوار ما ديار نوار كسونك شجوا هنّ منه عوار	العباس بن عبيد الله	الحزن الذي آثاره منظر الديار في نفسه	في بيت واحد	18 بيتا
6	لمن دمن تزداد حسن رسوم على طول ما أقوت وطيب نسيم	الفضل بن الربيع	بدت الأطلال في ناظريه هنا حسنة فوصفها ونفسه تمتلئ فرحا وطربا.	بيتان	13 بيتا
7	يا ربع شغلك إنّي عنك في شغل لا ناقتي فيك لو تدري ولا جملي	الفضل بن الربيع	ينصرف عن الطلل لأنه ليس من أهل.	في بيت واحد	6 أبيات
8	الدّار أطبق أخرس علا فيها وأعتاقها صمم عن صوت داعيها	الفضل ابن الربيع	وصف الأطلال بائسة خربة لا تستجيب لمن يناجيها.	3 أبيات	18 بيتا
9	لمن طلل لم أشجه وشجاني وهاج الهوى أوهاجه لأوان	الفضل بن الربيع	ذكر حزنه من منظر الطلل.	بيت واحد	19 بيتا
10	حيّ الديار وأهلها أهلا وأربع وقل لمفند مهلا	محمد بن الفضل	تحية الطلل وذكر سابق عهده حيث كان معمورا بأهله.	بيتا واحد	9 أبيات
11	أربع البلى إنّ الخشوع لباد عليك وإني لم اخنك ودادي	الفضل بن يحي	يتحدث عن وفائه للطلل ويتعذر له عما أصابه من صروف الدهر.	5 أبيات	23 بيتا
12	هل عرفت الربع أحلى أهله عنه فزالا	إبراهيم بن عبد الله	ذكر تحول الناس عن الديار، وما حل بها من النوائب، وعمل الريح فيها والحيوان الذي كان يرتادها.	5 أبيات	26 بيتا
13	عوجا صدور النجائب البزل فسائلا عن قطينة المنزل	إبراهيم بن عبد الله	تحدث عن جدب الطلل وتفرق ساكنيه وذكره كيف كان يرفل في النعيم في السابق.	5 أبيات	20 بيتا
14	لمن الديار تسربلت ببلالها نسيتك ربتها وما تنساها	إبراهيم بن عبد الله	تحدث عن البلاء الذي أصاب الطلل فتفرق عنه الأحبة، ثم تنكر له أحبابه.	بيت واحد	11 بيتا
15	ألا حيّ أطلال الرسوم الطواسما عفت غير سفع كالحمام جواثما	عمر الوارق	ذكر انطماس معالم الديار.	3 أبيات	7 أبيات
16	هل لديار حيّيتها درس من صمم ما هتفت أو خرس	ربيعة بن نزار	يذكر الجدب الذي أصاب الطلل بعد هجرانه	3 أبيات	7 أبيات

17	لا تعوجا على رسوم ديار دراسات بذي النقا أو بغبدا	الحسن بن إسماعيل	يدعو إلى الابتعاد عن الطلل	بيتان	5 أبيات

من الملاحظ أن أبا نواس حرص على الابتداء بذكر الطلل جريا على عادة الشعراء في عدد كبير من مدائحه، وقد تحدث في بعض مقدماته عن حبه للطلل وتشوقه للربوع وحنينه للرسوم كما هو الشأن في قصائده: (15،10،6،3،2،1)، وأحيانا نجد فتورا في عواطفه إزاء الطلل فيصفه مجردا عن التعاطف، أو يركز على صفة الخراب والجدب فيه كما هو الحال في قصائده: (16،14،13،12،8،7،5) وهنالك موضع دعا فيها صراحة إلى ترك الطلل في قصيدته (17).

ومن الواضح أن أبا نواس في حديثه عن الطلل هنا قد تبع الأسلوب ذاته الذي أقامه في أهاجيه، أعني أنه تحدث عن الطلل بما يناسب موضوع القصيدة، ومن الطبيعي أن يكون كلامه عن الأطلال في المدائح على جهة الإثبات لا بل الإعجاب أحيانا لأن موقف المدح يستلزم الإعجاب، وإثبات القيم تماما كما يستدعي موضوع الهجاء النقض.

فأبو نواس إذا نقض الطلل في جزء من أهاجيه، ذلك لأن الموقف في قصيدة الهجاء يستدعي مثل هذه النقض، وفي المديح يستدعي الإثبات فلهذا كان حديثه عن الطلل بعيدا عن النقض والثوارن.

الخاتمة

وخلاصة القول: يمكن النظر إلى دعوة أبي نواس لنبذ الطلل في فواتح الشعر من جهات عدة، وبحسب الموضوع الشعري الذي ترددت أصداء تلك الدعوة فيه. ففي موضوع الخمرة يبدو النواسي في دعوته متأثرا بفكر الشعوبية، خصوصا أنه حين قابل بين رفض الطلل والإقبال على الخمرة لم يكن يدفعه إلى ذلك الحرص على التجديد كما بينا آنفا، وإنما أراد إحياء ما كانت عليه حياة الأكاسرة والفرس عامة قبيل سقوط دولتهم بيد العرب المسلمين من إباحية ومجون، وهذا إنما ينسجم وما كانت تبطنه الشعوبية من حنين إلى حياتها قبيل الإسلام، إضافة إلى أنها عمدت إلى إشاعة ظواهر الخلاعة والمجون لإضعاف العرب.

وأما الأطلال في موضوعي الهجاء والمدح عند أبي نواس فلم تكن أكثر من معنى شعري، بمعنى أنه لم يسع إلى نقضها على نحو مقصود كما هو الحال في شعره الخاص (الخمرة)، إنما دعاه المقام في الأهاجي إلى نقضها، وفي المديح إلى إثباتها، والدليل على ذلك أنه أثبت وصف الطلل في صدر ست عشرة قصيدة، في حين دعا إلى نبذه في مقطعة واحدة.

الحواشي

1- الأصفهاني، أبو الفرج (الأغاني) ط مصورة عن ط دار الكتب المصرية: .2460
2- عطوان، حسين (مقدمة القصيدة في العصر العباسي الأول) ط دار المصارف بمصر 1974 ص.99
3- ابن منظور (أخبار أبي نواس) في ذيل كتاب الأغاني ط دار الفكر بيروت ص17. جمش: من التجميش وهو المغازلة بقرص ولعب.
4- أبو هفان (أخبار أبي نواس) تح: عبد الستار أحمد فراج، ط مكتبة مصر ص.71
5- المصدر نفسه.
6- ابن قتيبة (الشعر والشعراء) ط ليدن: .511
7- المصدر نفسه.
8- ابن منظور (أخبار أبي نواس) ص.25
9- أبو هفان (أخبار أبي نواس) ص.25
10- هدارة، محمد مصطفى (اتجاهات الشعراء في القرن الثاني للهجرة) ص.22
11- المرجع نفسه.
12- نيكلسون (تاريخ الأدب العباسي) ترجمة صفاء خلوصي مطبعة المعارف بغداد 1971م. ص:.8
13- أنظر مثلا أبو نواس بين العبث والاغتراب والتمرد لأحلام الزعيم، ط دار العودة 1981. ص.16
14- انظر أبو نواس في تاريخه وشعره ومباذله وعبثه ومجونه ص.19
15- ابن منظور (أخبار أبي نواس)ص.10
16- ابن قتيبة (الشعر والشعراء):2/.796
17- ابن المعتز (طبقات الشعراء) تح عبد الستار أحمد فراج ط المعارف بمصر: 193.
18- ابن جني (تفسير أرجوزة أبي نواس في تقريظ الفضل بن الربيع) تح محمد الأثري، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ص:.8
19- بروكلمان (تاريخ الأدب العربي) ترجمة عبد الحليم النجار ط دار المعارف 24./2
20- ابن المعتز (طبقات الشعراء) ص.192
21- ابن منظور (أخبار أبي نواس) ص.10
22- زيدان، جرجي (تاريخ آداب اللغة العربية) منشورات دار الحياة بيروت 1983م، ص.367
23- ابن منظور (أخي - أبي النواس) ص.13
24- فروخ، عمر (تاريخ الأدب العربي) ط4 دار العلم للملايين 1981 ص:2/.158
25- الزيات: أحمد حسن (تاريخ الأدب العربي) منشورات دار الحكمة ص.255
26- دائرة المعارف الإسلامية ترجمة أحمد الشنتناوي وإبراهيم خورشيد وعبد الحميد يونس مجلد 11 ص .412
27- ابن منظور (أخبار أبي نواس) ص.34
28- المصدر نفسه ص.29
29- المصدر نفسه ص.38
30- أبو نواس (ديوانه) تح أحمد عبد المجيد الغزالي ط دار الكتاب العربي ص .557
31- ابن منظور (أخبار أبي نواس) ص.38

32- ابن منظور(أخبار أبي نواس) ص.30
33- المصدر نفسه ص.31
34- ضيف شوقي (العصر العباسي) ط دار المعارف ص.220
35- ابن منظور (أخبار أبي نواس) ص.36
36- المصدر نفسه.
37- المصدر نفسه.
38- المصدر نفسه.
39- المصدر نفسه.
40- أبو نواس (ديوانه) تح أحمد عبد المجيد الغزالي، ط1 دار الكتاب العربي بيروت 1984م ص.11
41- أبو نواس (ديوانه) ص.65
42- أبو نواس (ديوانه) ص.97
43- أبو نواس (ديوانه) ص.110
44- أبو نواس (ديوانه) ص.119
45- أبو نواس (ديوانه) ص.168
46- أبو نواس (ديوانه) ص.172
47- أبو نواس (ديوانه) ص.189
48- أبو نواس (ديوانه) ص.673
49- أبو نواس (ديوانه) ص.678
50- أبو نواس (ديوانه) ص.681
51- أبو نواس (ديوانه) ص.460
52- أبو نواس (ديوانه) ص.193
53- أبو نواس (ديوانه) ص.146
54- أبو نواس (ديوانه) ص.196
55- أبو نواس (ديوانه) ص38. الزقاق: أوعية الخمر، أضغاث: جمع ضغث والضغث القبضة منه. ساباط: مدينة فارسية. البسابس: المقفرة. □